البلاد العربية في العهد العثماني

1516-1918م

أولاً -التوسع العثماني في البلاد العربية:

بعد سقوط مدينة القسطنطينية بيد العثمانيين عام 1453 م واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية باسم(استانبول)أي مدينة الإسلام حدث تغيير في ستراتيجية الدولة العثمانية فتوقفت الفتوحات باتجاه أوربا واتجهت نحو البلاد العربية نتيجة لعاملين هما ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس، والاستعمار الأوربي الحديث ممثلاً بأسبانيا والبرتغال.

بعد تولي سليم الأول 1520 - 1512 (م)السلطة في الدولة العثمانية قرر محاربة الشاه إسماعيل الصفوي 1524 - 1487 (م)والقضاء على دولته فتولى قيادة الجيش بنفسه، واتجه في ربيع عام 1514 م صوب الشرق وعند وادي جالديران قرب تبريز التحم الجيشان في معركة عرفت باسم معركة جالديران، استطاع فيها السلطان سليم الأول احتلال تبريز

عاصمة الدولة الصفوية، وكانت هذه المعركة بداية للصراع العثماني -الصفوي.

السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر

بعد الانتصار في جالديران وبحجة معاقبة الإمارات التي وقفت مع الشاه إسماعيل اتجه العثمانيون نحو بلاد الشام وهاجموا إمارة(ذو القدر)، وهي إمارة تركمانية صغيرة عاصمتها مرعش وتقع على حدود بلاد الشام بحجة عرقلتها سير جيش السلطان سليم أثناء تقدمه لمحاربة الصفويين وتحالفها مع دولة المماليك التي تحكم بلاد الشام

وحدثت المعركة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك في سهل مرج دابق بالقرب من مدينة حلب في شهر آب 1516 م، واستطاع العثمانيون من تحقيق الانتصار على المماليك وقتل السلطان المملوكي في هذه المعركة.

فتحت (معركة مرج دابق)الطريق أمام السلطان سليم لأحتلال بلاد الشام، فاحتل حلب ودمشق وطرابلس وصفد والكرك، واعتقد السلطان بأن معركة مرج دابق ستؤدي إلى انهيار دولة المماليك وسقوطها نهائياً في قبضته، فعرض على سلطان المماليك الاعتراف

بالخضوع للسيطرة العثمانية في مقابل الاحتفاظ بمنصب حاكم مصر، لكنه رفض ذلك وأصر على المقاومة.

قرر السلطان سليم الزحف من بلاد الشام لاحتلال مصر، ووصل إلى شواطئ النيل في مطلع عام 1517 م، وقد حاول المماليك تجميع قواهم وأقاموا خطاً دفاعياً عند الصالحية لعرقلة الزحف العثماني، إلا أن العثمانيين تجنبوا هذا الخط الدفاعي ودخلوا الدلتا حتى بلبيس، وفي مشارف القاهرة عند الريدانية حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في كانون الثاني 1517 م انتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة بعد انتصارهم في(معركة الريدانية) حيث اعدم السلطان المملوكي طومان باي.

بقي السلطان سليم في مصر بضعة شهور لدراسة أحوالها وتنظيم إدارتها، واستفاد من بعض أمراء المماليك، واسند إليهم بعض المناصب الإدارية، وشكل مجلساً إدارياً باسم ديوان الباشا مهمته تنحصر في مساعدة الوالي في شؤون الإدارة والحكم ثم تطورت وأصبحت تشمل منع الوالي من إساءة استعمال سلطته.

خضوع الحجاز واليمن للعثمانيين

كان من الطبيعي بعد سقوط دولة المماليك في يد العثمانيين ان يتبع ذلك انضمام الحجاز للدولة العثمانية وذلك لأن المماليك كانوا أصحاب السيادة عليه، وقد أعلن شريف

مكة ولاءه للسلطان العثماني بعد أن وصله فرمان منح الأمان .وقد أرسل الشريف وفداً إلى القاهرة برئاسة ابنه الكبير ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني، وتسليم مفاتيح الكعبة المشرفة وبعض الآثار النبوية الشريفة إقراراً له بالسيادة على الحجاز، وقد أعلن السلطان سليم نفسه خادماً للحرمين الشريفين .وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولاً سلمياً.

أما اليمن فقد كان واضحاً بعد سقوط دولة المماليك خضوعها للعثمانيين، فقد أرسل حاكمها وفداً لتقديم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي وافق على إبقائه في منصبه. إلا أن الصراعات الداخلية من ناحية، والتهديد البرتغالي من ناحية أخرى أديا إلى عدم استقرار الأوضاع السياسية في اليمن، فقررت الحكومة العثمانية إرسال حملة عسكرية كبيرة عام 1538 م ضمت) 20 (ألف شخص مع) 74 (سفينة مجهزة بالمدافع لاحتلال عدن،

كما احتلوا تعز عام 1545 م، وصنعاء عام 1547 م.

امتداد السيطرة العثمانية إلى بلدان المغرب العربي

يعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام 1492 م، واخراج العرب من آخر معاقلهم في بلاد الأندلس، نقطة تحول في تاريخ بلدان المغرب العربي ودوله، فالعرب المسلمون اضطروا بعد أن سقطت معاقلهم الواحدة بعد الأخرى في أيدي الجنود الأسبان إلى الاختيار بين القتل والتعميد، فأسرع عدد منهم إلى الخروج من الأندلس بما تمكن من حمله ملتجأ إلى موانئ شمال أفريقيا .وكانت خطة الأسبان تهدف إلى القضاء نهائياً على السكان المدنيين وأبادتهم، وتطويق بلدان المغرب العربي واحتلال موانئها المطلة على البحر المتوسط، ومن ثم احتلال أقاليم أفريقيا الواقعة إلى جنوبه، والسعي إلى تحويلها جميعاً إلى المسيحية. أخذ البرتغاليون ثم الأسبان بالعمل على تنفيذ هذه الخطة، فاحتل البرتغاليون سبته،

واحتل الأسبان مليلة والمرسى الكبير وهجموا على وهران، وإزاء اشتداد الصراع تطلعت أنظار أبناء المغرب العربي إلى قادة متمرسين في القتال البحري للدفاع عن أنفسهم

وموانئهم وتجارتهم فبرز آل باربروسا في المقاومة البحرية، وفي الطليعة منهم بابا عروج الذي جعل من جزيرة جربة في تونس مركزاً له منذ عام 1513 م وبدأ بالتصدي للسفن

الأسبانية والفرنسية والإنكليزية بكل شجاعة واقتدار الأمر الذي دفع مدينة الجزائر إلى طلب مساعدته لإخراج الأسبان، فخاض سلسلة من المعارك تمكن فيها من تحرير مدينة الجزائر وتلمسان ووجدة ونبدة، وقتل أثناء الدفاع عن مدينة تلمسان

بعد وفاة عروج تسلم القيادة أخيه خير الدين باربروسا الذي اتصف بالشجاعة والإقدام والحنكة السياسية وحسن التصرف وهدوء الأعصاب، فأدرك بأنه بحاجة إلى دولة قوية تحميه ويستند عليها في أوقات الشدة والضيق، فأرسل رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول يعرض عليه خضوعه وتبعيته له وطالباً منه المساعدة ومد يد العون، فسرَّ السلطان سليم بعرض خير الدين ووجد فيه توسيعاً للدولة العثمانية وتأميناً لحدود مصر الغربية، وفي الوقت نفسه أصبح خير الدين أكبر من مجرد أمير بحر، فقد أصبح رئيساً لدولة متحدة مع الدولة العثمانية.

أما تونس فقد وقعت تحت حكم العثمانيين في عام 1573 م بعد أن استطاعوا طرد الأسبان منها .ووضع القائد العثماني سنان باشا أسس النظام الإداري العثماني في تونس .وكان على رأس هذا النظام حاكم مدني يلقب بالباشا يمثل السلطان العثماني يساعده ديوان استشاري مكون من ضباط عسكريين، وموظف يدير الشؤون المالية يلقب ب(الباي)وقائد يلقب بالأغا يتبعه ضباط للفرق العسكرية برتبة رئيس، كل منهم يلقب بالداي، ولم يلبث الدايات أن استأثروا بالحكم دون الوالي لمدة) 50 (عاماً، حيث ظهرت سلطة أخرى هي سلطة الباي.كان البايات يحكمون تونس حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية، ولكن كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين لها من الناحية الروحية على أساس ان العالم الإسلامي وطن واحد. وحكمت من البايات أسرتان هما الأسرة المرادية والأسرة الحسينية حتى قيام الجمهورية في تونس 15 تموز 1957 م.

أما في ليبيا فقد نجح العثمانيون في السيطرة عليها عام 1551 م بعد احتلال طرابلس الغرب وبرقة وفزان وشمل الحكم العثماني كافة أجزاء ليبيا الحديثة .وكان يتولى شؤونها باشا يعينه السلطان العثماني تسانده نخبة من العسكريين يشكلون مجلساً استشارياً(ديوان)، ومنح السلطان هذا المجلس تصريف الأمور كالضرائب والشؤون الخارجية، ولكن سرعان ما ضعفت سيطرة العثمانيين على ليبيا نتيجة للصراع الداخلي والهجمات الأوربية البحريه الأمر الذي أدى إلى عدم الاستقرار السياسي فيها.

نتائج الحكم العثماني للوطن العربي:.

اولا:التخلف وتعطيل الدور الحضاري للامة العربية:.

في الوقت الذي كان فيه العرب قد اسسوا اعظم حضار عربية عرفها العالم في العصور الوسطى فان العثمانيين ما ان وطئت اقدامهم الوطن العربي في القرن السادس عشر الميلادي حتى عملوا على زيادة تمزيق عرى الوحدة السياسية التي كانت تربط بين ابناء الوطن وتجاهلوا دور العرب الاوائل في تاريخ الحضارة الانسانية واهملوا اللغة العربية وظهر هذا التأثير واضحا في التعليم والزراعة والصناعة والادارة وقد ادى ذلك الى طمس معالم الحضارة العربية واثر على الدور الحضاري للامة في الوقت الذي كان فيه العالم وخاصة اوروبا تستفيد وتطور الحضارة العربية بتحقيق نهضتها الحديثة.

ثانيا:ابرام العثمانيين المعاهدات والاتفاقات مع بعض الدول الاوروبية:بعد سيطرة العثمانيين على الوطن العربي انصرفوا الى جمع الاموال واهملوا الاصلاح بينما ظهرت النهضة في اوروبا وبدأت نتائجها تؤثرفي العلاقات بين العثمانيين والاوروبيين الذين طمعوا في الوطن العربي وتحرك فيهم الحقد الصليبي فبدأوا في محاولة الحصول على موطئ قدم وجاء ذلك عن طريق الامتيازات والمعاهدات التي عقدت مع الدولة العثمانية وقد ظهر ذلك واضحا في منح بعض الدول الاوروبية الامتيازات والتنازل لها عن اجزاء من الوطن العربي.

أ.منح الامتيازات الاجنبية: عرفت الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية بداية من سنة ١٥٣٦ م والتي جاءت على اثر تحالفها مع فرنسا التي تحصلت على عدة مزايا سياسية واقتصادية داخل الاراضي والمياه التابعة للدولة العثمانية ومنها:.

١.حرية التجول والاقامة لرعايا فرنسا.

٢.حرية التجارة دون دفع اي ضرائب.

٣.تدخل القناصل في شؤون القضاء.

وقد استفادت الدول الاوروبية من هذه الامتيازات واخذت تتسابق على الاقتداء بفرنسا في عقد معاهدات للامتيازات واستغل قناصل الدول هذه الامتيازات بالتدخل في الشؤون الداخلية للولايات وعزل الولاة وسيطر الاوروبيون على الاقتصاد والخدمات.

ب.التنازل عن اجزاء من الوطن العربي: قد ظهر على العثمانيون في القرون التالية الضعف والانهيار مما ادى الى فقدان معظم ولاياتها العربية في القرن التاسع عشر الميلادي ولم تستطع الدولة العثمانية الصمود امام الاطماع الاوروبية فبدأت تتنازل عن هذه الولايات لكل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا.

واوضح مثل على ذلك تنازل الدولة العثمانية عن ولاية طرابلس الغرب لايطاليا بعد الغزو الايطالي فعقدت معها معاهدة اوشي لوزان سنة ١٩١٢ م وقامت بسحب قواتها وتركت الشعب العربي يقاوم الاستعمار الايطالي بمفرده وما ان قامت الحرب العالمية الاولى حتى كانت الدولة العثمانية قد فقدت جميع ولاياتها العربية وتنازلت عنها تاركة هذه الولايات ترزح تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي والايطالي ونتج عن هذا التنازل في مابعد ظهور الكيان الصهيوني في فلسطين.

والخلاصة ان السيطرة العثمانية على الوطن العربي دامت نحو اربعة قرون من سنة ١٥١٦ م الى سنة ١٩١٨ م وقد كان لذلك نتائج عدة تداخلت مع بعضها البعض في صور سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كانت من الاسباب المباشرة في وقوع الوطن العربي تحت الاستعمار الغربي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.